السيدة نفيسة
المباركة صاحبة الكرامات

وُلدت السيدة نفيسة رضي الله عنها في عام ١٤٥ هجري بمكة المكرمة.

ويمتد نسبها إلى بيت النبوة، فهي من سلالة سبط الرسول الإمام حسن بن علي بن أبي طالب.

تميزت بالزهد والورع والتقشف والصلاح والتقوى، انكبت على دراسة التفسير وقراءة القرآن، وظلت صائمة طيلة حياتها، لم تفطر إلا في العيدين، وحين كان يطلب منها أن ترفق بنفسها، كانت تجيب: من استقام مع الله، كان الكون بيده وفي طاعته.

وقد وهبت السيدة نفيسة نفسها للعبادة والتقرب إلى الله تعالى، وقد ذُكر أنها حجت ثلاثين حجة، أدت معظمها سيراً على الأقدام.

كانت متزوجة من إسحق المؤتمن، الذي عيّنه المنصور العباس والياً على المدينة، وأنجبت منه: القاسم وأم كلثوم.

وفي عام ١٩٣ هجري حضرت السيدة نفيسة إلى مصر ومعها زوجها ولدها، واستقرت في الفسطاط، حيث قوبلت من أهل مصر

obeikandl.com

بالترحاب والفرحة، فقد سبقتها شهرتها كواحدة من أولياء الله الصالحين المباركين.

فاستبشر الأهالي خيراً بقدومها، واعتبروها فألاً طيباً وخيراً جاء لهم.

فالسيدة نفيسة لم تكن بشراً عادياً.

كانت من أولياء الله الصالحين، الذين منَّ الله عليهم بالمواهب والقدرات الخارقة، فما إن تحل في مكان حتى تكثر فيه البركة. وكان من رضى الله عليها: أنها لم تكن تلجأ إليه في مسألة من المسائل إلا وبذلها لها، فكان دعاؤها مستجاباً لا يرد الله لها طلباً.

إن الملوك والحكام لم يحظوا بما حظيت به السيدة نفيسة من علو مكانة، وشهرة تخطت الحدود، وعظمة وإجلال يفوقان التصور.

كان الناس يحيطون بها كأنها هالة من النور تسطع عليهم، فتنير حياتهم وتبعث فيهم الأمل والرجاء، ولم لا؟ وهي الطاهرة الخالصة الإيمان المقربة من الله. وهل هناك من البشر من هو أقوى سلطاناً وأكثر ملكاً وأرقى مكاناً من شخص يؤازره الله ويقف إلى جانبه؟ لقد كانت السيدة نفيسة مع الله في كل الأوقات، فكان الله معها دائماً، تبوأت درجة سامية بفضل قوة إيمانها وبذلها الطاعات وعبادتها الصادقة، فانعم الله عليها، ووضع فيها آية رحمته، فاشتهرت بمعجزاتها في شفاء المرضى الميئوس من شفائهم، وفك كرب

التعساء المغلوبين على أمرهم، ولم تكن ترد سائلاً ولا محتاجاً، ولم تكن تضيق بأصحاب الحالات المتلمسين من تقواها منفذاً لرحمة الله، فكانت تدعو لعباد الله الذين يقصدونها برجاء وأمل، فيزيح الله عنهم بلواهم، ويلبي لكل سائل حاجته.

يحكى أن جاءت فتاة يهودية مقعدة منذ سنين، بعد أن ملأها اليأس من الشفاء، وكانت قد سمعت عن كرامات السيدة نفيسة وقدرتها الخارقة، وشفائها لكثير من الحالات المستعصية، فلما جاءت إليها هذه الفتاة: أخذت ماء الوضوء ورشته على الجزء المشلول وهي تدعو الله أن يرحم الفتاة المسكينة ويمن عليها بالشفاء، فلما انتهت من رش ماء الوضوء: قامت الفتاة على قدميها، كأنها لم تكن قعيدة، وعادت إلى بيتها سيراً على الأقدام. واشتهرت هذه القصة كواحدة من القصص الكثيرة التي تزخر بها حياة هذه العابدة الجليلة.

وقد بلغت شهرة السيدة نفيسة في هذا المجال حداً: جعل الإمام الشافعي ــ وهو الفقيه العلامة العارف بالله ــ يرسل إليها المرضى من أصحابه فيعودون من عندها وقد شفوا تماماً، بل إن الإمام الشافعي نفسه حين مرض أرسل إليها يطلب منها أن تدعو له بالشفاء، فلما وصلتها رسالته قالت لمن جاءوا بها: إن الشافعي سيقابل وجه ربه الكريم.

وفعلا: مات الإمام الشافعي بعد أيام، وبعد أن أوصى أن تصلي عليه السيدة نفيسة.

إلى هذا الحد كانت الحجب مرفوعة أمام ناظريها.

وكانت قدرتها على الكشف أعجوبة تذهل العقل.

فسبحان الله القادر على كل شيء، الذي تتخطى نعمه على المخلصين من أتباعه كل تصور، فالمدد الذي وصلها به الله كان نسجاً من أعاجيب وأحداث لا يتوقعها العقل البشري.

بالرغم من هذا: فلم تفتنها عظمتها، ولم يطالها الغرور فيفسد عليها ما وصلت إليه، بل ظلت طيلة حياتها آية في التواضع والرفعة زاهدة في متاع الدنيا، باذلة نفسها لخدمة الناس وتخفيف آلامهم الجسدية والنفسية، فحين استجار بها رجل غني يشكو من ظلم حاكم المدينة واضطهاده له، وكيف أوقع رفقاء السوء بينهما: العداوة، حتى أنه أصبح يخاف على نفسه من انتقام الحاكم، فحياته مهددة وأمواله مستباحة، دعت له السيدة نفيسة أن ينقذه الله من مصيره المنتظر، وأن يكف الحاكم عن أذاه ويصفح عنه، فاستجاب الله دعاءها، وأمن الرجل من شر كان يحيط به، وعاش مكرماً معززاً، فأهداها مائة ألف درهم: اعترافاً منه بجميلها، فأخذتها ووزعتها على الفقراء، وكانت لا تملك في ذلك الوقت ما يكفيها من طعام يومها.

ولكن الشهرة التي وصلت إليها السيدة نفيسة لم تكن مصدر سعادة لها!

فإن الناس تزاحموا حولها، وأصحاب الحاجات لا ينقطعون عن طلب رؤيتها والتبرك بها، وكل يوم يزيد من شهرتها يجلب لها أعداداً أكبر من مريديها، فأصبح هذا الوضع أكثر مما تحتمل، واستاءت السيدة الفاضلة،

ليس تكبراً ولا ملالاً من مساعدة الناس،

ولكن لأن كثرة هؤلاء الزوار كانت تجور على عزلتها، وتأخذها من عبادتها التي لم تكن تنقطع، وتلهيها عن تفرغها الذي ألزمت به نفسها، لطاعة الله وذكره.

عندئذٍ توصلت السيدة نفيسة إلى حلّ ينقذها من تكالب الناس عليها، ويعيدها إلى وحدتها مع الله، وهو أن ترحل عن مصر نهائياً وتعود إلى المدينة.

لكن الناس الذين أحبوها أكثر من أي شيء في الوجود: لم يسمحوا لها بذلك.

ما إن عرف المصريون بقرار السيدة نفيسة بالرحيل عن مصر، حتى خرجوا إليها جميعاً، يتوسلون لها ألا تتخلى عنهم، ولقد بدا الأمر كما لو أنها مظاهرة "حب سلمية" فلم يتزحزح الناس من أمام

دارها، يبكي الرجال منهم قبل النساء، يرجونها من خلال دموعهم: أن تظل معهم، وتعيش بينهم آمنين معها، مستبشرين بها.

وظل هذا الوضع قائماً حتى حسمه الوالي، واستطاع إقناع السيدة نفيسة: أن تظل في مصر على أن ينظم زيارة الناس لها يومين فقط في الأسبوع، هما السبت الأربعاء، ثم نقلها إلى بيت آخر خصصه لها في درب السباع.

بعد أن قضت السيدة نفيسة في مصر سبع سنوات، هزل جسمها ومرضت، فقد كانت تصل الليل بالنهار صلاة وذكراً، وهي تبكي هلعاً وخوفاً من الله عز وجل، تسقط دموعها مدرارة من فرط الخشية، رغم صلاحها وتقواها، كما كانت لا تفرط في يوم تصومه إلا مُرغمة في الأعياد.

وتقول زينب بنت يحيى المتوج: خدمت عمتي نفيسة أربعين سنة، فما رأيتها نامت الليل، ولا أفطرت بنهار.

فلما اشتد عليها المرض، كتبت إلى زوجها إسحق أن يأتي، ثم حفرت قبرها بيدها في بيتها، وأخذت تنزل إلى هذا القبر تصلي فيه وتقرأ القرآن، حتى لقد ختمت قراءة القرآن مائة وتسعين ختمة، ومنذ أن حفرت السيدة نفيسة قبرها، وهي دائمة التعبد فيه، فكانت تذكر الله وتقرأ آياته، وهي نبكي بحرقة كبيرة، وفي ذات يوم سقطت السيدة الجليلة، وقد أوشكت أيامها أن تنقضي. هاهي

تحتضر وآلامها الجسدية تنال منها، فألح عليها خلصاؤها أن تفطر حتى تستطيع مواجهة المرض ومقاومة الآلام. فردت عليهم قائلة:

واعجباً، منذ ثلاثين سنة أسأل الله تعالى أن ألقاه صائمة، أأفطر الآن، هذا لا يكون أبداً.

ثم قرأت سورة الأنعام، وكان الليل قد هدأ، فلما وصلت إلى قوله تعالى "لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون" راحت في غيبوبة لم تفق منها، ثم فاضت روحها وماتت في القبر الذي حفرته بيدها.

أما زوجها، فقد وصل مصر في نفس اليوم، وعندما دخل عليها كانت قد رحلت عن الدنيا، فدفنها في قبرها، بعد أن منعه الأهالي من نقل جثمانها حيث أراد دفنها في المدينة، ولكن المصريون الذين تشبثوا بها حية تشبثوا بها ميتة، وأصبح قبر السيدة نفيسة مقاماً ومزاراً حتى اليوم، يفد إليه الناس من كل مكان، ولا ينقطع عنه السائلون والمريدون منذ مجيئها عام ١٩٣ هجرياً وحتى الآن.